عسكرية للقيصر تفتح فيها مدينة قازان عام ١٥٥٢ . وهو الذي اندفع بنشوة النصر ليقاطع القيصر في صلاته ويصيح : « قازان لنا ! » .وعندما عاد القيصر الشاب عام ١٥٦٠ الى طرائقه العنيفة نفى الأمير وزوجته وعائلته الى بييلوأوزيرو ثم رضي عنه بعد خمس سنوات عندما خلق الأوبريتشينا . على أن الأمير لم تكن له علاقة قط بهذا الحرس الشخصي للقيصر وإنما اقتصر على أن يكون عضوا في مجلس البويار وفي الزيمشينا. وقد تعرض زملاؤه النبلاء الى اعتداءات الأوپريتشينا والى التعذيب والموت ومصادرة الأملاك ، بينما بقي فوروتنسكي خلال سبعة عشر عاما الخادم الوفي دون أن يكون متأكدا أنه لن يغتال في الغد . كان يخدم بايمان وولاء حسب القاعدة التالية : « إذا كان سيدي يريد موتي فإن له لحق في ذلك ، فانا اعيش من أجله ومن أجل تنفيذ ارادته » . والقول المأثور التالي يجعلنا نفهم اي نوع من الرجال كان : « يعيش أفضل من غيره من كان مستعدا دائما لأن يموت » . هذا الشعور الغريزي بأن المرء يولد عبدا او سيدا لم يعد موجودا بيننا منذ عدة قرون حتى أصبح عندنا متعذرا على الفهم . أما لدى السلاف فانهم يسمونه خطأ « بالقدرية » ، وهذه الغريزة هي التي سمحت لفورتنسكي أن يخدم القيصر بنجاح مدة سبعة عشر عاما دون أن يتخذ أية احتياطات للمحافظة على سلامته الشخصية ، ودون ان يفقد أعصابه في يوم من الأيام . لم تكن له مصالح خاصة به وحده ، وقد أحرز لروسيا انتصارات لم يكن ليحرزها رجل لا يشعر بالهدوء والاطمئنان . ومنذ فترة وجيزة بدد شمل التتر الغزاة وانقذ موسكو من نهب جديد . والآن وقد نيف على الستين ــ وهو عمر متقدم بالنسبة لذلك الزمان ــ فان حياته كانت تسبح فوق المجد . كان في روسيا اشهر وابرز العجائز الباقين .

إلا أن فوروتنسكي كان يشغل الآن افكار القيصر الشيطانية . « لقد سمموا حياتي ، وهو أكبرهم » . كان المجرم الحالم يضيق في خياله على ضحية جديدة وهو لم يذق الراحة بعد النصر لشعوره بأن سحابة قاتمة كانت تتشكل فوق القصر ، وكان الشيطان يعذبه . كان يستخدم